www.christianlib.com

قصص مسيحية من واقع الحياة

ـ ٥ ـ

كيف عُدتُ إلى الله

وقصص أُخرى

دار مجلة مـرقس

كيف عدت إلى الله ؟

قصة اهتداء فتاة إلى الله بعد طول إنكار

فقدتُ إيمان الطفولة الوديع في وقت مبكر جداً. وكان اليأس قد بدأ فيَّ منذ الثامنة من عمري، إذ كنت أصلي: «ربي الحبيب، خذني من هنا، فإني أريد أن أموت». كنت أطلب الموت رغم ما بعث الله فيَّ من محبة وغبطة ظاهرة في بيت والديَّ. فقد كنت أتلمس بصورة لاشعورية ما في هذا العالم من كآبة وسأم.

ولم يكن لي من عزاء سوى بعض الذكريات الجميلة. ومنها زيارتي لأحد أديرة موسكو، فكنت أدلف إلى كنيسته الصغيرة الدافئة حيث السكون الصافي والرائحة الزكية وسلام الله ... وحيث قبَّلتني ذات مرة «مبتدئة» مشرقة الوجنتين بكل رفق ومحبة.

وإني لأتذكر خاصة شعوري بحضور المخلِّص أثناء عاصفة في عزبتنا الصغيرة قريباً من موسكو. فكانت العاصفة تزمجر، والبرق يلمع، والرعد يدوي بكل شدة. وكانت أختي الكبيرة تحدثني عن السيد ــ له المجد ــ الذي سكَّن العاصفة في البحر. فشاهدته ــ بقلبي ــ سائراً على الأمواج وكله بهاء ونور!!

ولم يفارق ذهني ما اعتادت أختي أن تريه لي أيضاً عن مشاهدتها للمخلِّص نفسه في الكنيسة أثناء النشيد الشاروبيمي، وكيف شاهدت الملائكة أيضاً بأجنحتهم الشفافة والوضاءة كأشعة الشمس!!

وذات يوم، وبينما كنت أجري في حديقتنا الصغيرة مفتشة عن الأزهار العابقة تحت أشجار التبول البيضاء، تمثلت من خلالها، وعلى حين غرة، خالق الكون العظيم. يا للبهاء الممتنع عن الإدراك! ويا للعجب! إن قلب الطفولة في داخلي قد مجَّد فنان الكون الجميل!

ولكني فقدت الإيمان في الثالثة عشر من عمري. وكنت قد التحقت بالمدرسة، فماذا حدث لي فيها؟ كنا ندرس كل شيء، لكن التعليم الديني كان جامداً لا حياة فيه، وسرعان ما أصبح الكتاب المقدس أسطورة في نظري. وفي الخامسة عشر فقدت الإيمان تماماً وانقطعت عن تناول الأسرار المقدسة.

وحين قرأت في الثامنة عشر وصف «روسو» لعظمة الخالق أثناء شروق الشمس فوق جبال الألب، قلت في نفسي: «إن الله موجود»، ولكني لم أرجع إلى الكنيسة في ذلك الحين.

وفي الحادية والعشرين من عمري قلت أثناء بعض الأحاديث: «لو خُلقتُ في زمان يسوع لكنت تبعته». وكان في هذا القول شيء كثير من الغرور. ولكن هذه الجملة لم تفارق ذهني لسبب ما. ولو سئلتُ يوم ذاك عن الإيمان لأجبت: «لست أدري». ولم أستطع أن أؤمن بفعل الفداء، لأني لم أكن أفهم حقيقة وجود الشيطان؛ كما وأن فكرة الخطيئة لم تكن واضحة في ذهني. وقلّما كنت أصلي، ولم أكن أفعل ذلك إلا بدافع لاشعوري.

وفي الرابعة والعشرين ألقى بي الرب على أبواب الموت في مرض مُضنٍ ليردَّني إلى الإيمان. والجدير بالذكر أنني كنت قبل مرضي بأسابيع أعيش في حالة غريبة وأسمع صوتاً في داخلي يقول لي: «متى تؤمنين بيسوع المسيح آبن الله؟ يجب أن تصلي»! وكنت ألتزم الصمت دوماً تجاه هذا الصوت.

وفي ذات ليلة، أثناء خدمتي في مستشفى يوغوسلافي، لمعت في خاطري فكرة كالبرق، فنظرت إلى أحد المرضى وقلت في نفسي: «لن يمضي وقت طويل حتى تهلك نفسه فكل شيء زائل»، ثم بدأت أشعر أن جمال العالم ينهار في عينيَّ. فهجرت المريض الذي أسهر عليه غير عابئة به وقصدت زيارة أختي في بلغراد.

لكن ساعة عقابي قد دنت، ففي اليوم الثالث من سفري وقعت مريضة. وفي اليوم السابع دخلت مستشفى المدينة مصابة بالطاعون الأسود. إن فكرة الموت مسيطرة على خاطري تصارعها رغبتي الشديدة في الحياة. فكدت أقع في الهذيان والجنون.

ونظرت مرة إلى إطار النافذة الرمادي ومن ورائه فراغ مظلم. فإذا بفكرة شيطانية تتملك ذهني بصورة مباغتة: «ليس ثمة من إله، ليس هناك سوى العدم والفراغ والإنحلال إلى الأبد ...» وفقدت الشعور بالواقع! وانقطعت الروابط بيني وبين العالم الخارجي. وبدأت مرحلة عذاباتي النفسية وآلامي الداخلية.

ففقدتُ الإحساس بالمكان والزمان. وإذا حقيقة الشيطان ماثلة أمام عيني. ولست أدري كم من الزمن استمرت هذه الحال. ومن ثم وقع بي ما هو أرهب من ذلك، فكاد يفلت مني شعور بنفسي وامتلأت كينونتي المدنسة، التي لم تتقدس بالأسرار منذ سنوات عديدة، بحقد رهيب! وأخذ روح الشر فيَّ يتهدد الله والسماء والكون بأسره!

وكانت تراودني من حين إلى آخر فكرة الفناء، وتتراءى لي ذنوبي فأضطرب ولا أرى سبيلاً لمحوها أو أملاً بالحياة. «صرير الأسنان» ذاك الغضب الإلهي هو عقاب خطاياي، وذاك الشقاء سوف يدوم أبداً، ولن يكون لعذابي تخفيف أو رأفة. فكأنه إحساس سابق بالعذاب الأبدي.

وأخذت أنظر إلى جسدي فأرعبني تبدُّل ملامحي، فكأن الوحش الذي يعذبني يشع من خلال أعضائي. وتملكتني فكرة الإنتحار فحطمت مرآة ظناً مني أنها نافذة كنت قد حاولت أن أقفز منها وأستسلم للموت. وأخبرتني الراهبات فيما بعد أنني كنت أتملك قوة غير بشرية، حتى اضطررن لتقييدي بوثاق والمحافظة عليَّ. واندلعت نيران الحرب فاجتاحني عطش هائل للدماء وكان روح الشر في داخلي يُسرُّ برؤية ملايين الضحايا!

بقيت هكذا طويلاً في الظلمات حتى كفَّ روح الحقد عن تعذيبي، وظهرت أمام

عـينـيَّ رؤ يـة لا تقل هولاً ورهبة عما أصابني ، ألا وهي رؤ ية موتى وتفسخي . وقد أراني الله تـفاهة الجسد الذي أتعلق به . فتمزقت أعضائي وامتلأت غرفتي برائحة كريهة وأصبح جـسدي كتلة عديمة الشكل ورأسي جمجمة قبيحة . فهتفت في وسط يأسي : « يا رب ، يا رب . كـيـف يُـقـدَّر لي أن أرى تفسُّخي وأنا ما زلت حية ! » فكان الجواب أن تلاحقت ذنـوبي أمـام نـاظـريَّ ، و بـصورة خاصة خطيئتي الأخيرة ألا وهي هجراني المرضى وإهمالي لهم .

وهـكذا كنت كقتيل تتلهف للعودة إلى الحياة : « آه لو أن معجزة تحدث فقط ! لو أن المـرء يـسـتـطـيـع أن يخـلـص مـن ديـاجير القبر ... لو أستطيع أن أنظر مرة واحدة إلى وجه أختي ... أواه ، يـا رب ، لأودُّ أن أعـيـش وأن ... » ومددت ذراعي نحو النور الذي يشرف أمـامـي ، حـيـث رأيـت الـراهـبـات الهـادئات السعيدات وتمنيت لو أعيش فأصير راهبة تُـعـرض عـن كـل ملذات الدنيا ! ولشد ما حسدت تلك الراهبات الباسمات الساكنات قاطعة هذا العهد على نفسي من صميم الفؤاد ، فاستعدت حواسي فجأة .

وتـطـلـعـت إلى جـسـدي كـشيء مستجد كل الجدة . وتذكرت صليبي الصغير الذي أُعطيتهُ في المعمودية ، وكنت قد رميته بحقد على الأرض ، فبدا لي طافحاً بالمعاني ! وطلبت مـن الراهبات أن يعطينني الإنجيل الذي لم أقرأه منذ طفولتي ، فأتين إليَّ بمؤلفات القديس أغسطينوس . وتذكرت بعض الصلوات التي كنت أحفظها فرحت أكررها بكل فرح .

و بـعـد أيـام قـلائل أبصرت حلماً غر يباً ولكنه منشط ، كنت أقاتل فيه مخلوقاً رهيباً وقـبيحاً . فرسمت إشارة الصليب وهتفت باسم الله طالبة معونته ، ومن ثم تناولت سكيناً وطعنته . فسمعت صوتاً قائلاً : « لقد قتلتِ الشيطان بمعونة الله » .

وانتهت أيام نقاهتي ، ومع ذلك لم أحصل على الإنجيل بالرغم من حنيني المتزايد إليه . بل كنت أتلقى كتيبات تتردد فيها أصداء المسيح فتؤثر فيَّ حتى البكاء .

وهكذا أخذتْ تتلاشى الظلمات من حولي. فالمخلِّص، محب البشر، قد كشف لي، أنا الخاطئة، عن نفسه بطريقة عجائبية. فجعلني أتحقق في نفسي أعجوبة التجلي الإلهي.

وبعد أسبوعين تلقيت الإنجيل هدية من أختي، وأخذت أقرأ فيه بشيء من الصعوبة لأن فكري الذي لم يطهر بعد من سم الأدب المعاصر الفاسد، لم يكن قابلاً لتلقي الحقيقة بالإيمان فقط. لكن قلبي المتجدد كان يشق دربه يوماً بعد يوم متقدماً نحو الله. وأصبحت الكنائس التي كنت لا أبالي بها عز يزة عليَّ باعتبارها حافظاً لنعمته تعالى.

وفي يوم عيد البشارة تلقيت الأسرار المقدسة بعد انقطاع تسع سنوات، وكنت مترددة في البدء، أتساءل ما إذا كان من الواجب أن أنتظر حتى تتلاشى شكوكي نهائياً؟ لكن فتاة روسية قالت لي: «عندما تقتربين من الكنائس قولي: أنا أؤمن يا رب ولكن أَعِنْ ضعف إيماني». ولقد فعلت. ومنذ ذلك الحين تبدل العالم في عيني وصرت أشعر أكثر فأكثر **أن الله هو الحياة الحقيقية وهو كلي القدرة وجزيل التحنن والفائق على كل جمال. وفهمت أنه لا يمكننا أن نجد الله عن طريق العقل البارد المتغطرس بل عن طريق القلب المتواضع ــ بالإيمان ــ كطفل صغير.**

ودخلت الدير عشية عيد الأيقونة المسماة «الفرح غير المنتظر»، وكان ذلك اليوم يوم فرح عظيم بالنسبة إليَّ. وقد كتبت عن الرؤى الرهيبة التي شاهدتها بدافع داخلي. ولعل ملحداً متشككاً يبتسم و يقول: إنها تخيلات حمى وعَرَضٌ مفهوم من أعراض المرض. لكن المرء المستنير بالإيمان سوف يفهمني و يسمع معي من خلال هذيان المرض وآلام الضمير صوت الله الرهيب والفائق الحنان في الوقت نفسه: **«أن الله، الراعي الصالح، ينادي الخروف الضال».**

قصة واقعية:

كيف عرفت الله

□□□

كان ذلك على مراحل، فحتى السادسة عشر تقريباً من عمري كنت غير مؤمن بشيء، وكنت ضد الكنيسة بطريقة عدائية للغاية، ولم أكن أعرف الله، ولم أكن أُبالي بشيء؛ بل وكنت كارهاً لكل ما يتعلق بفكرة الله. وهذا بالرغم من أنَّ والديَّ كانا مؤمنين، وذلك لأني حتى سن الخامسة عشر كنت أعاني بشدة من صعوبة الحياة. فحتى ذلك الحين لم يكن لنا كأسرة سقف واحد مشترك نأوي تحته. وكنت أنا في ذلك الحين ملتحقاً بمدرسة داخلية كانت الحياة فيها شاقة ومتعبة. وكان بقية أفراد الأسرة يعيشون في أركان مختلفة من ضواحي پاريس، ولم نجتمع تحت سقف واحد إلا عندما بلغت السادسة عشر.

وعندئذ بدأنا نحس بالسعادة الحقيقية والبهجة.

وقد يكون من الغرابة بمكان أن نعتقد أنه في بيت بسيط في إحدى ضواحي پاريس، قد يمكن لأحد أن يجد سعادة حقيقية. ولكن هذا هو ما حدث لنا فعلاً، وهذه كانت أول مرة يكون لنا فيها بيت منذ أن اندلعت الثورة الروسية.

ولكن قبل ذلك ينبغي أن أقول إني قد صادفت أمراً ما حيَّرني للغاية: فقد أُرسلت إلى معسكر صيفي للفتيان عندما كنت في الحادية عشرة من العمر، وهناك قابلت قسيساً كان يبدو أنه يناهز الثلاثين، وكان يتمتع بسجايا أَسَرتني للغاية ــ فقد كان له محبة لا يألو جهداً في أن يبذلها من أجل كل واحد منا، ولم يكن حبه لنا مشروطاً بصلاحيتنا، ولم يتغير قط عندما كنا نبدي شيئاً من سوء الأخلاق. فقد كانت له بالحقيقة قدرة على الحب غير مشروطة: لم أرَ من قبل في حياتي مثيلاً لها. في البيت كنت محبوباً وهذا أمر طبيعي. وكان لي أصدقاء يبادلونني الحب ولكن هذا أيضاً كان أمراً طبيعياً، أما نوعية

تلك المحبة التي لاقيتها من هذا الكاهن فلم أجد مثلها قط من قبل، بل ولم أستطع أن أعللها؛ فقط وجدت هذا الإنسان لغزاً محيِّراً للغاية وصديقاً محبًّا، محبوباً للغاية.

ولم تمض إلا سنوات، وكنت قد اكتشفت الإنجيل، فبدأت أفهم أن هذا الكاهن كان يحب حباً يفوق كل حب بشري. إنه كان يغدق على كل واحد منا حباً إلهياً، أو إن شئت أن تقول: إن حبه الإنساني كان من العمق والعلو والإتساع حتى أنه كان يحتوينا كلنا في الفرح وفي الألم، ولكن من خلال الحب الواحد.

هذه الخبرة أعتقد هي أول وأعمق خبرة روحية ذقتها.

ماذا حدث بعد هذا؟

لا شيء، فقد عدت بعدها إلى مدرستي الداخلية وكانت كل الأمور تسير على ما كانت عليه من قبل، حتى وجدنا أنفسنا كلنا تحت سقف واحد. هذا وعندما وجدت نفسي محاطاً بسعادة لا يعكر صفوها شيء، إتفق أن وقع لي أمر مفاجيء. فقد اكتشفت أن السعادة إذا كانت لا غاية لها فإنها تكون غير محتملة. وأنا لا أطيق سعادة ليس لها غاية في الحياة، فالضوائق والمصاعب ينبغي التغلب عليها، ولابد أن وراءها دائماً شيئاً. ولكن لأن تلك السعادة التي قابلتها لم يكن لها معنى أبْعَد، ولم أكن قد آمنت بشيء، لذلك بدت لي أنها شيء مملٌّ مبتذل، لذا قررت أن أعطي لنفسي مهلة سنة حتى أرى ما إذا كان للحياة أي معنى وإلا أقدمت على التخلص من الحياة بطريق الإنتحار!

كيف استطعت أن أخرج من هذا المأزق:

بدأت أبحث عن معنى للحياة أكثر مما حاولت أن أجد ما ترمي إليه من هدف. أن أدرس وأعدَّ نفسي لأكون نافعاً للحياة؟ هذا لم ينفعني أبداً. فكل حياتي حتى ذلك الحين كنت أركز على أهداف مباشرة قريبة، وفجأة أصبحت هذه الأهداف لا وجود لها، وأحسست بشدة بشيء درامي في داخلي، وأن كل شيء حولي بدا لي ضئيلاً وبلا معنى.

مرت شهور ولم يظهر في الأفق أي معنى. وفي أحد الأيام ــ وكان ذلك في غضون

الصوم الكبير، وكنت حينذاك عضواً في منظمات الشباب الروسية في پاريس ــ أتاني أحد القادة وقال لي: «نحن قد دعونا كاهناً ليتحدث إليكم، فتعالَ.» فأجبته بغيظ شديد: «إني لا أريد. فليس لي نفع للكنيسة. وأنا لا أؤمن بالله ولا أريد أن أُضيِّع وقتي سدىً». ولكن القائد كان حاذقاً. فقد أبان لي أن كل واحد من أفراد المجموعة التي أتبعها قد سلك نفس المسلك، وإذا لم يأتِ ولا واحد منهم فسنضع أنفسنا جميعاً في موقف محرج، لأن الكاهن قد أتى فعلاً وسيستخف بنا إذا لم يحضر أحد حديثه.

ثم قال لي القائد: «لا تصغ لشيء، هذا لا يهمني، ولكن، ولكن فقط، إجلس واحضر ولو بحسب الظاهر».

وأما من جهتي فلأني كنت شديد الإخلاص لمنظمتي الشبابية لذا آليت على نفسي أن أتخذ لي مكاناً بينهم أثناء المحاضرة، ولكن لم أكن أنوي الإستماع، بل كان الكلام ثقيلاً على أذنيَّ وكان السخط ينتابني أكثر فأكثر، ومنظر المسيح والمسيحية صار عندي كريهاً بشدة.

وعندما انتهت المحاضرة هرعت إلى البيت لكي أراجع حقيقة ما كان يُقال. وسألت أمي إذا كان عندها كتاب الإنجيل؛ لأني أردت أن أعرف ما إذا كان الإنجيل يؤيد الإنطباع السيء الذي خرجت به من الحديث، وكنت لا أتوقع شيئاً طيباً من القراءة، لذا حسبت عدد أصحاحات الأناجيل الأربعة حتى أعرف ما هو أقصرها فأقرأه فلا أضيِّع وقتي عبثاً. ثم بدأت بقراءة إنجيل القديس مرقس.

الحضور الإلهي أثناء قراءة الإنجيل:

وبينما كنت اقرأ في بداية إنجيل القديس مرقس، وقبل أن أصل إلى الأصحاح الثالث، أدركت فجأة أن في الجانب المقابل من مكتبي كان هناك حضور لكائن إلهي، وكان هذا حقيقة قوية لم تفارقني أنه هو المسيح نفسه الذي كان هناك واقفاً بجانبي. ومن هنا بدأت نقطة التحول الحقيقية في حياتي، لأن المسيح كان حياً وقد اختبرت وجوده

فعلاً واستطعت أن أقول بتأكيد ما قاله الإنجيل عن صلب نبي الجليل أن ذلك كان حقاً، وأن قائد المئة كان على حق عندما قال: «حقاً هذا هو ابن الله». وعلى ضوء قصة القيامة استطعت أن أقرأ بيقين قصة الإنجيل، عالماً أن كل شيء فيه كان صادقاً؛ لأن حدث القيامة المستحيل أصبح عندي أكثر يقينية من أي حدث تاريخي آخر. التاريخ كان واجباً عليَّ أن أصدقه، أما القيامة فقد عرفتها كحقيقة. أنا لم أكتشف، كما ترى، بدأ الإنجيل برسالته الأولى عن البشارة ولم ينفتح لي كقصة على المرء أن يصدقها أو لا يصدقها؛ إنه ابتدأ كحدث ترك وراءه كل معضلات عدم الإيمان (عدم التصديق) لأنه كان خبرة شخصية مباشرة.

ولكن هل استمر هذا الإقتناع الداخلي مدى الحياة؟

ــ لقد أصبحت على يقين تام في نفسي أن المسيح حي وأنه توجد أمور يقينية، لم يكن عندي الإجابة عليها كلها، إلا أنني قد تلامست فعلاً مع تلك الخبرة، التي أكدت لي أن أمامي إجابات (على كل شيء) ورؤى... وإمكانيات تنتظرني.

وهكذا تقدمت إلي معرفة الله ــ ليس برؤيا ولا بمعجزة، ولكن بتلطف إلهي فائق أثناء قراءتي لكلمة الله ــ بإخلاص بسيط ــ أقول الصدق ــ نعم بإخلاص بسيط. هناك أحسست بحضوره الفائق الذي غمر حياتي كنور باهر ينبلج في مكان مظلم، فيحيل سواده إلى بهاء... ومن ذلك الوقت وأنا مسيحي.

التوقيع:
المطران أنطوني بلوم
مطران غرب أورو با
للروس الأرثوذكس

عن: "Interview with the Archbishop Antony Bloom"

* * *

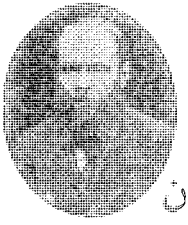

في الذكرى المئوية
لوفاة الكاتب الروسي الكبير
[١٨٨١ ــ ١٩٨١]

كيف أرجع دستويفسكي شاباً إلى الإيمان

□□□

[هذه المقالة مأخوذة من مجلة «الهيرالد التاريخية» التي كانت تصدر في روسيا قبل الثورة، عدد مارس ١٩٠١ وكاتبها هو أ. زلنتسكي، الذي كان طالباً في كلية سان بطرسبرج اللاهوتية. وقد ترجمت للإنجليزية في مجلة Orthodox Life أخيراً].

كنت متديناً جداً في طفولتي، ولكن في سن السادسة عشرة أخذني ذلك الحماس الجارف لداروين وسبنسر ونظرية التطور التي كانت منتشرة بين شباب هذه الأيام... فأصبحت شكاكاً.

كنت أتعذب من التفكير في أسئلة عديدة مثل: حقيقة وجود الله، خلود الروح، ضرورة وأهمية الأخلاق في الحياة، هذا فضلاً عن أسئلة عديدة عن الحركة الشعبية. ومن ثم كان قراري بالإلتجاء إلى دستويفسكي.

—□—□—□—

استقبلني دستويفسكي بكل سرور. وكاشفته بكل تفاصيل حيرتي، وظل طول الوقت صامتاً وهو يهز رأسه بحزن عميق و بتأنيب خفي. ثم سألني:

ــ «في أي مدرسة تدرس؟»

فلما أخبرته، أجاب بألم:

ــ «يا إلهي! هل وصل عدم الإيمان إلى هناك أيضاً؟»

وعاد يهز رأسه بحزن من جديد. و بعد فترة صمت بدأ يقول:

ــ «حتى لو ارتد الناس كلهم عن الإيمان بالله وأصبحوا ملحدين وحققوا هواهم تماماً كما كانوا يرغبون دائماً ــ فإنهم لابد سيتحققون على الفور أنهم بالحق صاروا يتامى، إذ سيكتشفون أنفسهم وقد تجردت من كل قوة وعزاء وهم بدون الله!! بدون المسيح!! و بدون الإيمان بذلك الذي هو بلا خطية وحده... و بعمل دمه الكفاري... آه يا إلهي ما أحلكها ساعة إذا حدث ذلك...»

و بعد فترة صمت، قال بقوة:

ــ «لكن ذلك لن يحدث أبداً... أبداً».

قالها وقد ثبت نظراته بعيداً في الفضاء... ثم استطرد:

ــ «دعني أخبرك شيئاً... إنه لو ترك الأمر لي، لأرسلتك وأرسلت كل الشباب الذين لهم مثل معتقداتك بعيداً إلى الأعمال الشاقة... لماذا تبتسم؟... نعم حقاً... كنت أرسلك أنت لكي تتعلم من الناس البسطاء هناك الإيمان بالله ولتتعلم أن تكرم الحق الإلهي المقدس... فإنك أولاً وقبل كل شيء كنت ستؤمن بالله و بالمسيح الفادي المحب بكل ذرة من كيانك ــ وإذا شعرت بعد ذلك أنه عسير عليك أن تأكل وتشرب بينما أنت لا تعمل شيئاً ــ أي إذا بلغت إلى الإحساس بالشفقة على المساكين الذين لا يُعَدُّون من الكثرة ــ فابدأ حينئذ بتوزيع كل مقتناك عليهم وآذهب بعد ذلك عاملاً من أجل الصالح العام، فيكون لك حينئذ كنز في السماء، حيث لا يجمع أحد ولا يخزن. ولكن توزيع مقتنياتك ليس إلزاماً ــ ولا حتى لبس رداء الفلاحين ــ التي ما هي إلا شكليات، ولكن الأمر الضروري والهام هو قرارك وتصميمك أن تعمل كل ما في وسعك عن محبة فعالة ــ أي أن تعمل كل شيء تعرف في داخلك بإخلاص وأمانة أنه في مقدورك أن تعمله. إن كل هذه النضالات لنصير بسطاء ما هي إلا أقنعة تخفي انتقاصاً من شخصك، فأنت تصير معقداً بينما تسعى لأن تكون بسيطاً. كن فقط مخلصاً و بسيط القلب فهذا أحسن من أي اصطناع للبساطة. وإياك أن تقول أنهم لم يعطوني شيئاً لأعمله، أو أن يديَّ مقيدتان...

وهلم جرًّا من الأعذار. فالذي يريد أن يكون نافعاً يستطيع أن يمارس جماً من المعجزات ويداه مقيدتان. ما أطول الزمن الذي تستغرقه وحدها دراسة وطننا، لأنه من النادر كما تعلم، أن نجد بيننا من يعرف وطنه. ففي وطننا يجب أن نغرس الفهم الحقيقي للحرية والإخاء والمساواة...

إنهم (يقصد الذين كانوا ينادون بالثورة الشيوعية) اليوم يساوون الحرية بإطلاق العنان للشهوات، بينما الحرية الحقيقية هي في قهر الذات والإرادة الشخصية حتى يحقق الإنسان كماله الأخلاقي، فيكون سيد نفسه. إنهم يساوون الحرية بالضمان المالي، ولكن هذه ليست حرية، بل هي في جوهرها: العبودية للمال. إن أعظم حرية، ليست هي في جمع المقتنيات وحماية الإنسان نفسه بأمواله، بل أن توزِّع كل ما لديك وأن تذهب وتخدم الجميع. فإذا ما صنع الجميع ذلك، فإنهم حقاً يصبحون إخوة ــ وحينما يكون الإخاء فهناك تكون المساواة.

ولكن أولاً وقبل كل شيء آخر يجب أن تؤمن بالله وبالمسيح الذي تألم حاملاً الصليب وعبر وطننا مباركاً.

نعم يا صديقي، إن من الضروري أن تحب الناس وأن تحب حقه الإلهي المقدس. لقد أردت أن أكتب كتاباً عن يسوع المسيح، كنت أنوي أن أُبيِّن فيه أنه هو معجزة التاريخ وأن ظهور مثل هذا المثال الكامل لابساً جسداً بشرياً وسط هذه الإنسانية المقززة النتنة ــ هذه في حد ذاتها هي المعجزة الكبرى. بل وأردت أكثر من ذلك أن أثبت بالدليل أن الإنسانية عاشت وستظل تعيش لمئات القرون وهي تستمد من المثال الأخلاقي الذي للمسيح، تماماً كما تستمد الأغصان من عصير الكرمة.

لا يا صديقي الشاب، تذكر دائماً ما قاله لك والداك وأنت صغير السن: «إن الله موجود. وكذلك حقه الإلهي المقدس».

وأنهى الكاتب الكبير توبيخه والدموع تترقرق في عينيه. ولا أذكر كيف حييته

مودعاً، ولا كيف وصلت منزلي، ولا حتى كيف أنتهى ذلك اليوم، ولكني أذكر أنه أبتداء من ذلك اليوم بدأ أنقلاب أخلاقي يحدث داخلي، فقد تحولت من شخص غير مؤمن إلى شخص مسيحي يعي إيمانه. وحتى ميولي الجماهيرية فقد اتخذت الطريق الذي أحبه دستويفسكي بدلاً من ذلك النمط المتطرف الشائع.

وعندما نشر روايته الأخيرة: «الإخوة كارامازوف» قرأتها باهتمام واستيعاب وانتباه مركَّز، ففرحت إذ وجدت فيها تأكيداً وتطويراً للآراء التي حدثني عنها والتي غيرت حياتي.

دستويفسكي في ساعاته الأخيرة(١):

أصيب دستويفسكي بمرض خطير في أوائل عام ١٨٨١ حار الأطباء في علاجه. ولما أحس بقرب انتقاله نادى زوجته «آنّا» ورجاها أن تستدعي له الكاهن. واستقبل دستويفسكي الكاهن بهدوء، ولفظ اعترافاته الأخيرة وتناول من الأسرار المقدسة. ثم بارك أبناءه وأوصاهم أن يحيوا في سلام ويحبوا أمهم و يعتنوا بها. وأخيراً عزّى زوجته.

وفي صباح اليوم التالي، دعا زوجته، وقال لها: «إني سأموت اليوم». وكعادته طلب كتاب «العهد الجديد» وفتحه بنفسه وإذا به فصل من إنجيل متى ٣: ١٤ــ١٥: «ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليَّ. فأجاب يسوع وقال له: أسمح الآن. لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر. حينئذ سمح له». ثم التفت إلى أمرأته وقال لها بهدوء: «ألا تسمعين؟ لا تمنعيني... هذا يعني أني سأموت». وفي المساء انتقل دستويفسكي.

(١) هذه الواقعة الأخيرة. عن: St. Vladimir's Theol. Quart., 1981, p. 151, 152.

رسالة من أحد الحاخامات الربيين المعاصرين:

خبرة إيمانية حية معاصرة(١)

□□□

ـــ لماذا أصبحتَ مسيحياً بعد أن كنت سابقاً رابّياً (حاخاماً يهودياً)؟

السؤال هنا يبدو غريباً على مسامعي؛ فهل أنا صرت مسيحياً بناءً على خطة معينة أو لغرض ما، أو بناءً على باعث مُلزم؟ كلا، بل كل ما أعرفه هو أن نعمة الله جعلتني مسيحياً، وتحوُّلي من اليهودية إلى المسيحية هو، بالنسبة لي، سِرٌّ أنحني أمامه هيبةً وخشوعاً.

إنه الروح القدس، وهو وحده الذي غيَّرني تغييراً جذرياً، وحينما قبلت المسيح، لم يعد ناموس التوراة هو وسيلة القُربى إلى الله... بل أحسست إحساساً قوياً ودائماً، على طول الخط، أن نفسي قد امتلأت بالحب الإلهي. وفجأة وبدون توقُّع، أو أي جهد ذاتي من جهتي، أشرق عليَّ نور. هذا النور الذي كان في الأيام الغابرة ـــ عندما كنت تقياً يهودياً ـــ كان لي بمثابة بصيص بعيد جداً. وفي الحال شاهدت في نفسي الواحد القدوس، سر الأسرار، ولكن بوضوح يفوق كل وضوح.

أما بالنسبة للمبادىء الأخلاقية الدينية، فهي عديدة في اليهودية كما في المسيحية، والوصايا الخاصة بآداب السلوك تكاد تكون لها نفس التعبيرات في كلا الدينين، ولكن من وجهة الواقع العملي فهما يختلفان اختلافاً جوهرياً. فالمبدأ الأخلاقي المسيحي يُعطَى من فوق بالروح القدس، الذي أتى إلينا فقط بعد قيامة المسيح، وهو نفس الروح الذي يحلم به اليهودي التقي حتى هذا اليوم؛ إنهم يحسونه ويرونه، ولكن من بعيد. أما المسيحي الحقيقي فإنه يحيا في الروح القدس، من خلال إيمانه بيسوع المسيح.

---

(1) His Life is Mine, Archimandrite Sophrony.

الروح القدس يسبي حتى الجسد بأعذب الحب، محرِّراً إياه من عبودية الشهوات، إلى الدرجة التي فيها يحدث أن الجسد نفسه يتوق لو أنه يذوب في الروح.

وهكذا ترى أنني صرت مسيحياً ليس من نفسي، ولكن هو الله الذي أرسل نعمة الروح القدس وجعلني كذلك... الروح يستريح في المسيحي الحقيقي، بل ويحوطه من كل جانب. وهذا يتم من خلال الإيمان بالمسيح. وهذا هو التدرج الذي يحدث: الإيمان يجتذب الروح القدس، والروح القدس في نفس الوقت يقوي الإيمان، و يعتني بك و يسندك، و يستحث فيك الإشتياق الحار لملكوت السموات. لأولئك الذين لم يتذوقوا بعد النعمة الحقيقية، سيكون كلامي هذا عندهم غامضاً.

أما تدرُّج التغير الحقيقي فلا يمكن وصفه أو شرحه: إنه شيء لا يمكن لعين أن تراه، أو لأذن أن تسمعه. وكل ما يمكنني أن أصفه هو أنه عندما امتلأت نفسي بالأحاسيس المسيحية الرقيقة، سمعت نفسي تناجيني، محدِّثة إياي عن ميلادي الجديد في المسيح، ولكنها كانت تحدثني بلغة الصمت! هذه التي لا أجد لها كلاماً؛ ومع هذا فأنا على يقين من أن نفسي قد أنشدت أنشودة جديدة، أنشودة الحب الحلوة الرقيقة، التي رفعت مني عبء الماضي. وهذه الأنشودة غيرتني عن شكلي؛ وولدت فيَّ إرادة جديدة وأشواقاً جديدة...

أنا الآن وكأني في علاقة حب مع المسيح. وأنت تعرف أنَّ من هو في حب مع المسيح، لا يمكن أن تكون له رغبة في المجادلة. إنه فقط يريد شيئاً واحداً؛ أن يحب ويحب إلى الأبد. أتريد أن تعرف، بل أن تختبر نعمة المسيح؟ إذن أطلب هذه النعمة من ذاك الذي يقدر أن يمنحك إياها. أما إن كنت تظن أنها ليست لك لأنك غير قادر على التصديق؛ فنصيحتي لك أن تحرِّض قلبك على التصديق، وحينئذ سيستطيع أن يصدق. بالإيمان تصل إلى الإيمان! تشبَّثْ بالرغبة في طلب الإيمان، وهو سيُمنح لك.

عندما كنت يهودياً، كنت أيضاً أعرف الله، ولكن معرفتي به كانت متغيرة وفقاً

لحالتي وسلوكي كإنسان! أما في المسيح، المسيا القدوس آبن الله، فأنا مُتقادٌ في دائرة الحب الإلهي الثابت غير المشروط. وهذا الأمر سيكون مفهوماً لديك إذا كنت تحيا من قبل في النعمة المسيحية، التي هي أثمن الكنوز، وهي كفيلة بأن تشبع كل نفس أياً كانت.

إن الحق الذي في المسيح يشهد له الروح القدس، وكل من يؤمن به يمكنه بسهولة أن يعي شهادة الروح القدس هذه. □

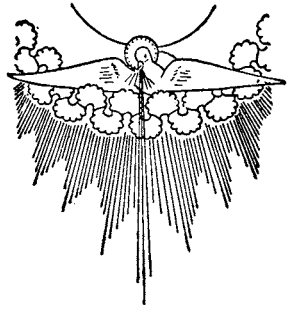

توبة فيلسوف

الأب سرجيوس بُلْجاكوف

كيف فقدت إيماني! لقد ضاع مني دون أن ألحظ ذلك. كان كأنه حدث حتمي لا يمكن تجنُّبه، ذلك عندما اعتُصرت شاعرية طفولتي عن طريق الدراسة. وبمجرد ما اختبرتُ شكوكي الأولى، واستيقظتْ في داخلي قواي النقدية مبكراً عرفت أني لن أستطيع أن أكتفي ببراهين الكتب. فبدلاً من أن تساعدني هذه عملت على الإطاحة بإيماني أكثر فأكثر.

لقد أثارت دراستي مشاكل دينية كثيرة لم أستطع أن أقاومها، أما هداية معلمي فقد قادتني إلى البلبلة الفكرية، وازداد هذا الصراع بإجباري على حضور شعائر العبادة المطوَّلة. ذلك لأن التقوى الأرثوذكسية أثارت حفيظتي كما أن جانبها الصوفي كان قد انتهى بالنسبة لي. إن ضعفي يرجع إلى أنه في وقت يقظة قواي النقدية كنت متجرداً من أي ثقافة حقيقية. هذا جعلني لا أملك دفاعاً ضد سموم وجهات نظر العقليين، الذين قبلت بطريقة تلقائية و بدون أيّ فحصٍ إتجاهاتهم الثورية.

مراحل العودة إلى الله:

أ ــ المرحلة الأولى: كنت قد بلغت من العمر أربعاً وعشرين عاماً، لقد عشت بدون إيمان إلى عشر سنوات و بعد عواصف من الشك مبكرة، ساد على نفسي فراغ ديني. كان الوقت مساءً، وكنا نسير عبر سهول روسيا الجنوبية وكانت حشائش الربيع بشذاها القوي تضيئها أشعة الغروب المجيدة وقد رأيت حدود القوقاز الزرقاء على بُعد. كانت هذه أول مرة أرى فيها هذه الجبال. ونظرت بنشوة إلى منحدراتها المرتفعة، وأخذت أتلقى الضوء واستنشق الهواء. واستمعت إلى إلهام الطبيعة. كانت نفسي معتادة على الألم الممل من جراء نظرتي إلى الطبيعة كأنها صحراء لا حياة فيها وعدم رؤيتي إلا لجمالها السطحي كقناع خادع. ولكني بالرغم من اقتناعي العقلي، لم أستطع أن أتفاهم مع

الطبيعة بدون الله. لقد فرحت نفسي فجأة في ذلك المساء و بدأت أفكر بدهشة عما سيحدث لو أن الكون لم يكن صحراء أو أن جماله ليس مجرد قناع أو خداع أو أن الطبيعة ليست موتاً بل حياة.

إن كان الآب الرحيم المحب موجوداً، إن كانت الطبيعة هي رداء ينطوي على محبته ومجده، ثم إن كانت مشاعر طفولتي التقوية عندما كنت أحيا في حضرته، عندما أحببته وأنا أرتعد بسبب ضعفي؛ إن كان كل هذا حقاً فإن إلهام ودموع مراهقتي وعذوبة صلواتي ــ براءتي وكل المشاعر التي رفضتها ودستها بقدمي، لابد وأنها ستهتز.

ب ــ المرحلة الثانية: وقد اجتاحتني موجة جديدة من الإفتتان بالعالم في سنة ١٨٩٨ ولقد اختبرت السعادة الشخصية. تقابلت مع الغرب لأول مرة. وكان إعجابي بثقافته و برفاهيته ثم بديمقراطيته الإجتماعية إعجاباً لا حد له.

ثم حدث لقاء مفاجيء رائع بتمثال المادونا (العذراء الأم) في در يزدن، وكان الوقت خر يفاً والصباح كثيف الضباب. ذهبت إلى معرض الفنون لأقوم بواجبي كسائح، كانت معرفتي بالتصو ير الأوروبي لا تكاد تُذكر، لم أكن أعلم ماذا أتوقع رؤ يته. واخترقت نفسي عينا ملكة السماء الأم التي تحمل بين ذراعيها الطفل الأبدي، **وصرخت بدموع الفرح والمرارة معاً، ومعها ذاب الثلج من على نفسي وتحررت من بعض عقدي النفسية.** كان هذا شعوراً جمالياً ولكنه أيضاً **كان معرفة جديدة،** كانت معجزة. كنت ما زلت ماركسياً ولكني كنت مضطراً أن أدعو تأملي في تمثال المادونا باسم «الصلاة». ذهبت إلى زو ينجر باكراً جداً قبل أن يذهب الآخرون **كنت أسرع إلى هناك كل يوم لأصلي وأبكي أمام العذراء ولم تكن هناك إختبارات كثيرة مباركة في حياتي مثل تلك الدموع غير المتوقعة.**

ج ــ المرحلة الثالثة: كان الوقت خر يفاً، وهناك دير ضائع وسط الغابة. وكان اليوم مشرقاً وتحوطني المناظر المعتادة للطبيعة في الشمال، كنت ما زلت بين مخالب

الشكوك والتردد. وذهبت إلى هناك (إلى الدير) كرفيق لأحد أصدقائي، **وكان لديَّ رجاء سري للتقابل مع الله**، لكن عزيمتي هجرتني.

وبينما كنت في صلاة الغروب بقيت بارداً بدون إحساس. ولما تلوت الصلوات التي تُقال للذين يستعدون للإعتراف، كدت أهرب من الكنيسة. ومشيت وأنا في حزن عميق نحو بيت الضيافة، لا أرى شيئاً من حولي، ولكني وجدت نفسي أمام غرفة رئيس الدير فجأة. كنت منقاداً إلى هناك. وكنت أقصد التوجه إلى مكان آخر ولكنني اتخذت الإتجاه الخاطىء، نتيجة انشغالي الذي زاد بسبب ضيقتي. لقد حدثت لي معجزة. ولاحظتها بدون أي شك. فالآب السماوي إذ رأى ابنه الضال أسرع ليقابله. لقد سمعت من الأب رئيس الدير أن كل الخطايا البشرية هي مثل قطرة من الماء وسط محيط من الحب الإلهي. **وتركته وقد نلت الغفران، وتصالحت مع الله مرتعداً بدموع، وقد شعرت بنفسي وكأنني محمول على أجنحة إلى ما داخل الكنيسة.** وبينما أنا أدخل، قابلت صديقي المندهش الذي رآني أترك الكنيسة وأنا في حالة كآبة شديدة. كان شاهداً على نقطة الذهول في حياتي.

كان الوقت غروباً ولكنه كان غروباً في الشمال بدلاً من الجنوب. كانت الأجراس تدعو إلى الصلاة وكنت أستمع إليها كأنني أسمعها لأول مرة في حياتي لأنها كانت تدعوني أيضاً لكي أشترك في كنيسة المؤمنين.

نظرت إلى العالم بعينين جديدتين. وفي الصباح، وقت التناول عرفت أنني شريك في العهد، وأن الرب قد عُلِّق على الصليب وسُفك دمه عني وبسببي؛ وأن أعظم وليمة تلك التي كان يعدها الكاهن لي، وأن قصة الإنجيل عن الوليمة التي كانت في بيت سمعان الأبرص وعن المرأة التي أحبت كثيراً كانت موجَّهة لي شخصياً. **حدث هذا كله في اليوم الذي اشتركت فيه في جسد الرب ودمه لأول مرة.**

من مذكرات: «الأب سرجيوس بولجاكوف»

قصص من واقع الحياة

تصدر منفصلة في كتيبات صغيرة، سبق نشرها في مجلة مرقس لمؤلفين متنوعين:

١ ــ المحبة تُدخلنا أمام الله

٢ ــ قصص عن الإيمان والمعجزات

٣ ــ إيمان الطفولة العجيب

٤ ــ إني مستعد أن أموت ثانية وقصص أُخرى

٥ ــ كيف عُدتُ إلى الله ــ قصص الرجوع المبارك إلى الله

(تتبَّــع دائماً ما يصدر من قصص من واقع الحياة)